الأحد: 2024/10/27
الفوج 1 التوقيت: 16:30 – 18:00
الفوج 2 التوقيت: 14:50 – 16:20
الفوج 6 التوقيت: 13:10 – 14:40
الاثنين: 2024/10/28
الفوج 3 التوقيت: 13:10 – 14:40
الفوج 4 التوقيت: 14:50 – 16:20

الدرس رقم 04:

الاستشراق وتاريخ الأدب العربي.

لقد اهتم الاستشراق بتاريخ الأدب العربي ضمن اهتمامه بالثقافات الشرقية وهذا الاهتمام خدم الأدب العربي وحفظ الكثير منه من الزوال والضياع، كما عرف العالم بطبيعة الحياة الأدبية والفنية التي سادت العالم العربي في القرون الماضية، فهذه الأبحاث والدراسات التي قام بها المستشرقون عن تاريخ الأدب العربي حتى وإن اعترتها النقائص والمغالطات وغلب عليها الطابع الذاتي بعيدا عن الموضوعية إلا أنه لا يمكننا أن ننكر فضلها في إرساء دعائم هذا التاريخ الضخم، وهي التي جعلتنا نعيد النظر في تراثنا القديم، والكشف عن مواطن الزيف التي حاول بعض المستشرقين إرساءها، وذلك بتقديم الحجة والبرهان لبيان عكس ما ذهبوا إليه.

وللاستشراق أيضا فضل كبير في تحقيق النصوص، والمقارنة بينها، والتمييز بين صحيحها وزائفها في حضور معطيات وقرائن شكلت عندهم أدوات للبحث، ووسيلة للوصول إلى الحقيقة العلمية، وهي خطوات لا بد منها لتطوير العلم وتحقق المعرفة.

وقد ظهر اهتم الاستشراق بتاريخ الأدب من خلال:

- إحياء التراث الأدبي واللغوي، والتاريخي.
- تحقيق كتب ومخطوطات ضخمة تشبه المجامع العلمية، وشرحها والتعليق عليها.
- نشر الكتب والمخطوطات المهمة.
- ترجمة الكتب إلى اللغات الأجنبية.
- تأليف كتب عن التراث والتاريخ الأدبي العربي.

كل هذه الجهود التي قام بها الاستشراق من أجل التعريف بتاريخ الأدب العربي كان الغرض منها **استجلاء صورة الشرق من خلال الأدب** حين توقف المستشرقون عند الحقبات التاريخية المتتالية باحثين في خصائصها وفي خصائص العقلية العربية الإسلامية التي ظهرت جلية في ما كتبه العربي من أشعار، ونصوص نثرية مختلفة انعكست فيها طبائع شخصيته، وأسلوب تفكيره، وكذا ملامح من البيئة التي ولد فيها الأديب، وعبّر عنها بأساليب وفي قوالب شتى .

من ذلك مثلا شعراء المعلقات في العصر الجاهلي، فهي تعد – بغض النظر عن الشك في نسبتها إلى الجاهلية – من أروع النماذج التي أبدعها الشاعر العربي، ففي كل مقطع منها يقدم لنا الشاعر تصويرا عن البيئة

التي عدها قاموسه الذي يأخذ منه مادة شعره، لقد صور لنا الشاعر هذه البيئة في جذبها وفي خصبها، كما جعلنا نتبين طبيعة العلاقات التي سادت مجتمع القبيلة، وما فيها من تناحر وحروب.

كذلك الشأن مع شعر الفتوحات الإسلامية، كما نجد ملامح الحياة العربية في الشعر الأموي، ولا سيما في شعر النقائض الذي يعد وثيقة دقيقة تكشف بوضوح عن العقلية العربية في العصر الأموي، والأمثلة على مدى انعكاس البيئة في الأدب كثيرة.

ويقودنا هذا الكلام إلى الإشارة إلى تلك العلاقة الكامنة بين تاريخ الأدب وعلم الاجتماع من جهة وبين هذين المجالين وعلم الاستشراق من جهة أخرى. لقد استفاد المستشرقون من علم الاجتماع في تاريخهم للأدب العربي وفق مناهج علمية تؤمن بأن المعارف الإنسانية لابد وأن تتكامل فيما بينها للوصول إلى اليقين (النسبي)، فالاستشراق الأدبي بحاجة ماسة ومتواصلة إلى نتائج علماء الاجتماع لتكون له عونا في تأريخه للأدب الشرقي عموما والعربي خصوصا.

فالأدب أتاح للمستشرقين معرفة جوانب كثيرة من الشرق، خاصة ما يتعلق بتفاصيل لصيقة بالمجتمع الذي ظهر لهم أنه يتميز بخصائص وله ثوابت تميزه، لأن الأدب في صورته العامة ظاهرة اجتماعية يصدر عن المجتمع ليعود ويعبر عنه في قوالب شتى.

ويمكن أن نستخلص رغبة المستشرقين في الاطلاع على تاريخ الأدب العربي لم تكن من أجل التثقيف وإنما رغبتهم تعطي لنا صورة عن طبيعة الانشغالات التي كانت توجه الفكر الأوربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهي المتمثلة في إعادة كتابة التاريخ الثقافي الأوربي بصورة تحقق له "التقدم والاستمرارية من جهة"، وتجعل منه التاريخ "النموذجي" و"المثالي" للبشرية بشكل عام من جهة أخرى، فالتاريخ الأوربي وحده هو التاريخ "العام" و"الرسمي" للفكر الإنساني كله، أما ما عداه فهوامش.

ومن هذا المنظور قرأ المستشرقون "تاريخ الأدب العربي"، وفق الأدوات المنهجية والإجرائية نفسها التي اعتمدوها في قراءة تراثهم الخاص، ونظموا المعارف الأدبية العربية وفقا لتوقعاتهم وانتظارا تهم منه، حتى يضمنوا التحكم في كينونته، وينفذوا إلى هويته، ليبرزوا فيها ما يشاءون، ويخفوا ما يشاءون، ويتجلى ذلك من خلال الاعتماد على التحقيب السياسي.

ومن جهة أخرى لجأ المستشرقون إلى البحث في اللغة وذلك من خلال ظهور نظريات تبحث عن أسرار اللغات، وتنظر إليها باعتبارها منتظمة في سلسلة مترابطة، وخاضعة لأنساق وقوانين معينة، وكونها تجسد بنسب متفاوتة الفكر البشري وتحاكيه... إلى غير ذلك من العناصر التي شكلت تأسيسا معرفيا لما يسمى المقاربة الفيلولوجية – فهي دراسة اللغة والآداب، الفنون والسياسات، الديانة والعادات الاجتماعية– التي ستتجاوز فيها دائرة اللغة إلى مجال النقد وتاريخ الأدب.

إذن، مبدأ التحقيب السياسي، والمقاربة الفيلولوجية للنصوص، هي أهم الدعائم التي قام عليها مفهوم تاريخ الآداب العربية في القرن 19، وظهر أول مؤلف يحمل عنوان "تاريخ الأدب العربي" عام 1850، وقد ألفه المستشرق النمساوي "هامر بورجشتال"، ثم ظهر كتاب كريمر سنة 1877، ثم المؤلف الإنجليزي "أربتونت" سنة 1890، والألماني كارل بروكلمان سنة 1898. ثم ظهرت مؤلفات أخرى في تاريخ الأدب العربي في النصف الأول من القرن العشرين لكل من نيكلسون، وبلاشير ونلينو... وغير هؤلاء كثير.

– التحقيب السياسي:

ظهر في التراث العربي تحقيب قائم على ما اصطلح عليه ب "الطبقة"، أو علم الطبقات، الذي يعد من إبداعات الحضارة الإسلامية، وقد وضع العلماء العرب عدة ضوابط للتصنيف حسب الطبقات (ضابط الدين، وضابط العدد، وضابط الزمان، وضابط المكان)، أما التحقيب الذي اختاره المستشرقون في تأريخهم للأدب العربي فهو التحقيب الذي يجعل من عصور التاريخ السياسي عصورا لتاريخ الأدب العربي. ويركز على دور المنعطفات السياسية والتاريخية الكبرى في الانعطافات الأدبية والفنية. وفي ما يلي نماذج من هذا التحقيب:

قسم كارل بروكمان – تاريخ الأدب العربي– إلى مرحلتين أساسيتين:

المرحلة الأولى: أدب الأمة العربية من أوليته إلى سقوط الأمويين سنة 132 هـ/750 م، وتنقسم هذه المرحلة إلى الأقسام التالية:

- الأدب العربي إلى ظهور الإسلام.
- محمد [صلى الله عليه وسلم] وعصره.
- عصر الدولة الأموية.

المرحلة الثانية: الأدب الإسلامي باللغة العربية. وقد قسم هذه المرحلة إلى ما يلي:

- عصر ازدهار الأدب في عهد العباسيين بالعراق منذ حوالي 750م إلى سنة 1000م تقريبا.
- عصر الازدهار المتأخر للأدب منذ سنة 1000 م تقريبا إلى سقوط بغداد على يد هولاكو سنة 1258م.
- عصر الأدب العربي منذ سيادة المغول إلى فتح مصر على يد السلطان سليم سنة 1517م.
- عصر الأدب العربي من سنة 1517م حتى أواسط القرن التاسع عشر.
- الأدب العربي الحديث.

أما المستشرق "كارلو نالينو" فقد اعتمد تحقيبا يقوم على ثلاثة عصور أدبية:

1. الآداب العربية في العصر الجاهلي.
2. الآداب في صدر الإسلام وأيام الخلفاء الراشدين.
3. الشعر في عصر بني أمية.

تكاد هذه الخطاطة المنهجية تتكرر في أغلب التآليف التاريخية الاستشراقية، مع وجود اختلافات بينها حول قضايا جانبية منها:

- عدد العصور الأدبية، فهي عند بروكلمان ستة عصور، وعند نالينو وجيب خمسة عصور وعند نيكلسون وهوار سبعة عصور.
- بداية ونهاية هذه العصور، في علاقتها بالمدة التي يستغرقها كل عصر.
- مسألة التسمية؛ إذ هناك من المستشرقين من حافظ على الاصطلاح التاريخي السياسي (العصر الجاهلي– العصر الإسلامي– فالعصر العباسي...الخ)، وهناك من اعتمد اصطلاحات أخرى: فالمستشرق جيب– مثلا– يغلف العصور السياسية بالصفات التي يعتقد أنها طغت على العصر من بين هذه الاصطلاحات: العصر البطولي (يقصد به العصر الجاهلي)، ثم عصر الغزو والتوسع (يقصد به العصر العباسي الثاني)، العصر المملوكي.

هذه خطاطة تطابق بين التحولات السياسية والتحولات الأدبية، بحيث يصبح الحدث السياسي المتمثل في سقوط دولة أو نشوئها حدا فاصلا بين العصر الأدبي السابق واللاحق. دون الانتباه إلى أن تاريخ الأدب العربي لا تحكمه دائما الانقطاعات التي تسود التاريخ السياسي في انتقاله من مرحلة إلى أخرى، وآية ذلك أن هناك شبه إجماع بين هذه التآليف على اعتبار "الجاهلية" حقبة من تاريخ الأدب العربي تنتهي سنة 622م، والعصر الأموي حقبة من تاريخ الأدب العربي تنتهي سنة 750م، وبذلك فهم يؤكدون تمايز هذين العصرين تبعا للتمايز السياسي، لكنهم في الوقت نفسه يركز أغلبهم على وجود تشابه بين هذين العصرين على مستوى المضامين والأشكال الفنية نشير هنا إلى ما أورده بروكلمان في هذا المجال بقوله: "ولم يؤثر الإسلام تأثيرا عميقا في شعراء العرب، كما يريد النقاد العرب أن يقنعونا بذلك، فقد سلك شعراء العصر الأموي دون مبالاة في مسالك أسلافهم الجاهليين". لكن الممارسة العملية – من خلال عملية التأريخ– لا تخرج عن الإطار المشار إليه سابقا، الذي يقوم على تسويد التحولات السياسية على التحولات الأدبية.

وحتى التآليف التي كتبها المؤرخون العرب حول الأدب العربي، هي تآليف أعادت إنتاج الرؤية الاستشراقية مضمونا وشكلا، مما يجعلها تندرج ضمن ما يسميه إدوارد سعيد "استشراق من الدرجة الثانية". يكفي أن نشير هنا إلى جرجي زيدان الذي يعتبر المؤلفات الاستشراقية هي النموذج في مجال التأليف التاريخي الأدبي الحديث، لأنها "أفضل نموذج لآداب العالم المتمدن [على حد تعبيره].

– **المقاربة الفيلولوجية للنصوص:** تقوم على ثلاثة مبادئ:

1/ مبدأ التأصيل: فالمؤلفات الاستشراقية التي أنجزت ضمن تاريخ الأدب العربي كانت معنية بإرجاع الظواهر والنصوص والقضايا إلى أصولها الأولية، فتأريخ الأدب العربي من منظور القراءة الاستشراقية محكوم بالمركزية الأوربية، فكثيرا ما ينظر إلى مباحث تاريخ الأدب العربي وقضاياه وعلومه في علاقتها بأصول يونانية أو هندية أوربية عموما، لذلك نصادف في التآليف الاستشراقية المذكورة من يتناول النحو العربي في علاقته بالأصول

والمراجع النحوية في الإسكندرية أو غيرها، وينظر إلى علم العروض العربي في علاقته بالأوزان الأوربية، كما يضع تصورا للهجات العربية القديمة واللغة العربية الفصحى من خلال العلاقة التي حكمت اللغة اللاتينية واللهجات الرومانية المختلفة.

وقال المستشرقون في الدراسات التي اهتمت ببعض المبدعين العرب من كتاب وشعراء أمثال: مذهب ابن حزم في طوق الحمامة، القائم على الحب العذري "غير مألوف ولا معهود في الثقافة العربية الإسلامية التي يطبعها الحب الحسي"، فالمثالية المسيحية هي أصل ما نعثر عليه في كتاب طوق الحمامة– وغيره من المؤلفات العربية– من حب عذري، وتصوف الحلاج – عند ماسينيون– ثورة على الإسلام "السني"، أرجعه إلى التثليث المسيحي الذي هو المتنفس الحقيقي للعقل والفكر.

فهم خلصوا إلى استنتاجات حول سمات الشعوب الموصوفة؛ فالشرقيون يتسمون بالتحجر والبحث عن المطلق، بينما الغربيون يميلون إلى المعرفة العلمية، ونصادف هذا الموقف– مثلا– عند "بلاشير" الذي يرى في كتابه "تاريخ الأدب العربي" أن الأدب العربي يفتقد عموما إلى الإبداع والعبقرية.

2/ عملية التنصيص وتحليل النصوص:

– **عملية التنصيص:** من حيث جمع النصوص، والوثائق الأدبية، وتفسير ماضي الظواهر الأدبية في سياقها التاريخي والاجتماعي: كيف جاءت؟ ومتى ظهرت... الخ.

– **تحليل النصوص:** اعتمادا على الشرح على طريقة ما يسميه لانسون "السير خطوة خطوة"، وذلك من خلال تعقب الأفكار وفق تسلسلها في النص، أي وفق نظام خطي متتابع.

تقدم هذه القراءة الفيلولجية نفسها باعتبارها قراءة تتوخى الحياد وتهدف إلى إنتاج خطاب موضوعي، وتزعم أنها تقف عند حدود التلقي المباشر من النص أو من التاريخ وتجتهد في أن يكون هذا التلقي بأقل تدخل ممكن من المؤرخ، وبأكبر قدر من "الأمانة"، وحتى على مستوى الخطاب، تغيب الذات المتكلمة، ويعتمد المستشرق /المؤرخ في سرده للأخبار والمعلومات طريقة أقرب إلى ما يقوم به "السارد المحايد الموضوعي" في السرد، حين تغيب الذات المتكلمة على الصعيد اللغوي ويحافظ السارد على مسافة فاصلة بينه وبين ما يرويه.

لكن ما قام به المستشرقون عكس ما قالوه، حيث أبرزوا من تاريخ الأدب العربي إلا ما يناسبهم، واختزلوا منه إلا ما يخدمهم، وأعادوا صياغته وفقا لتوقعاتهم وانتظارا تهم منه، دون دراسته بهدف إعادة الانتظام الواعي فيه، واستعادته في ضوء أسئلة الحاضر وحاجياته. لذلك فمن المفروض أن قراءة التاريخ الأدبي العربي ينبغي أن تتم من موقعنا التاريخي لا من الموقع التاريخي للغير، والأدوات المنهجية والإجرائية التي جاء بها المستشرقون يمكن اعتمادها كمكتسبات علمية إنسانية عامة لما يخدمنا فقط.

3/ الطابع الشمولي: لعل النموذج الذي يمكن تقديمه في هذا المجال هو نموذج تاريخ الأدب العربي لبروكلمان بأجزائه الأساسية التي أصدرها سنة 1898، وأجزائه التكميلية التي صدرت في مجلدات كبيرة تصل إلى حوالي 2600 صفحة سنة 1942، ليكون هذا المشروع قد استغرق حوالي نصف قرن مع تأكيد بروكلمان في مقدمة الكتاب بأن عمر المؤرخ الواحد لا يسعف في إنجاز تاريخ أدبي على الوجه الأكمل "ولكن ما يعجز عنه عمر تستطيع أعمار أن تعمله"، وعليه يتجلى مبدأ الشمولية عند المستشرقين من خلال تآليف تاريخية عامة تؤرخ للأدب كما تؤرخ للأحداث السياسية والاجتماعية والتاريخية والدينية بشكل عام، ولا تؤرخ للأدب بمعناه الاصطلاحي المحدود، مما يجعل هذه المؤلفات تحضن كل مكونات الثقافة العربية الإسلامية.

وعليه يمكنني أن أختم ما قله الاستشراق عن تاريخ الأدب العربي في قول إدوارد سعيد: "المستشرق يمكن أن يزود مجتمعه بتمثيلات للشرق تحمل طابعه المميز الخاص، وتوضح تصوره لما يمكن للشرق أو ينبغي له أن يكون، وتتحدى تحديا واعيا وجهة نظر إنسان آخر للشرق، وتزود الإنشاء الاستشراقي بما يبدو، في تلك اللحظة، بأمس الحاجة إليه، وتستجيب لمتطلبات معينة ثقافية، ومهنية، وقومية، وسياسية، واقتصادية تفرضها الحقبة التاريخية".